التشابه الايديولوجي والتاريخي بين العنصرية والصهيونية

يعود التشابه بين كل من بريتوريا وتل – أبيب ليس إلى كون اسرائيل وجنوب افريقيا تتقاسمان المصير المشترك، وليس لانهما تناضلان من أجل وجودهما وبقائهما وسط الاغلبية المحيطة بهما، وفق الرأي السائد في جنوب افريقيا، وحسب، وانما لواقع انتماء كل منهما إلى مجتمع تعدّدي، كثير القوميات، مكون من مجموعات عرقية واثنية * مختلفة. ففي جنوب أفريقيا سكان أصليون ومستوطنون أوروبيّو الاصل.

وبنظرة تحليلية لايديولوجية كل من الصهيونية والعنصرية، يتبين لنا مدى التشابه بينهما، الذي يبلغ حد التطابق والتكامل.

عند ولادة الفكرة الصهيونية، رفضت بعض الجماعات اليهودية، بادىء الامر، هذه الايديولوجيا لأنها تتناقض حسب اعتقادها، مع الدين اليهودي. وقد حدث الشيء نفسه لدى الطرف الآخر، إذ ان الدعوات العنصرية للبويريين البيض الهولنديين سببت انقساماً وشرخاً في الكنيسة المسيحية الهولندية على وجه الخصوص. فقد كانت الكنيسة الهولندية، كنيسة المستوطنين الافريكاتيين، واعتماداً على بعض عبارات العهد القديم (التوراتي)، تعتقد ان عدم المساواة بين الاجناس والاعراق البشرية هو أمر مقدر من السماء. وعليه فإن السود الذين تعتبرهم الكنيسة من سلالة حام، مقدَّر لهم ان يخدموا البيض، وفق ما تزعمه. ونظر الافريكاتيون إلى السود على انهم ادنى مرتبة منهم، ومنحطين وغير متمدنين.

والصهيونيون، يعتمدون، أيضاً، على مقاطع توراتية مماثلة، لتسويغ ادعائهم واستعمار فلسطين. فإضافة إلى زعم الصهيونيين أنهم يحملون المدنية إلى منطقة آسيوية همجية متخلفة، فقد زعموا ايضاً ان فلسطين هي ارض الميعاد المعطاة من الله لنبيهم موسى وإلههم (يهوه). فالصهيونية، اذاً، هي فكرة عرقية، وعلى هذا الاساس تقسم العالم وفق القاعدة التالية: «يهودي وغير يهودي». وبهذا التقسيم العامودي تقفز فوق «أكوام»، إن صح التعبير، من التناقضات الاجتماعية على الصعيدين العالمي والاقليمي. وجنوب افريقيا، تنطلق ايضاً من هذه الارضية العقائدية؛ فالاقلية تقوم على خدمة الشعب المختار: البيض، الموازي لليهود، عند الصهيونين في فلسطين. أما عداء الصهيونية للّاسامية، فليس سوى وسيلة استقطابية، لحث «يهود الشتات» على الهجرة إلى فلسطين.

---

* بعد توغل (البورز) في جنوب افريقيا، قاموا بعزل السكان الافارقة، واختلقوا لهم قومية وايديولوجية ولغة، خاصة بهم، تتناقض مع قومية السكان الاصليين وايديولوجيتهم ولغتهم. وبعد اكتشاف الماس والذهب في القرن التاسع عشر، تعرض البورز لهجمات من المستعمرين (الانكلوفون) الاوروبيين غير الهولنديين، حيث دارت بين الجماعتين معارك دامية. ولكن وحدة المصالح من منظور استغلال الثروات الطبيعة والانسانية لجنوب افريقيا، دفعت المستعمرين المتحاربين لتجاوز صراعاتهم، وتشكيل اتحاد جنوب افريقيا.